حديث مع الجناب العالي

قصر تاتيانيا

قرأتُ في جرائد جنيف ان سمو الخديوي المعظم قدم جهات نيون على سواحل بحيرة ليمان ونزل في قصر تاتيانيا للاستحمام بمياه ديفون مدة من الزمان . فكتبت من فوري الى سعادة الفاضل شفيق بك رئيس الديوان الخديوي الافرنجي ان يتفضل فيرفع الى الجناب الفخيم رغبتي في التشرف بمقابلته لتقديم واجب السلام ورفع عريضة الولاء مع التعظيم فكتب سعادتهُ اليَّ ان سموهُ يقابلني عصر ٢٢ الجاري قبل انْ يغادر نيون ويصعد في جبال سو يسرا. فنزلت في غداة ذلك النهار الى نيون وسرتُ قاصدًا قصر تاتيانيا والسماء تذرف دموع السحاب والبرق يقرطق ظهور الهضاب وما زالت المركبة تجري بي بين المروج والرياض والحدائق والغياض فاطل تارةً على بحيرة ليمان وطورًا على القصور والاقدان وانا اخالني لشدة المشابهة سائرًا بين بيروت ولبنان حتى ونعت عيني فجأةً على الراية المصرية تخفق وسط الحدائق والبساتين على ما تحتها من الاشجار والرياحين. فعلمتُ انني دنوت من قصر تاتيانيا وكأني انتقلت الى خمائل القبة او فناء عابدين . فجعلت امتع الطرف بمحاسن الحدائق والخمائل التي غرسها البرنس يوسف يوسف الروسي منذ ثلاثين عامًا واتطاولُ لرؤية القصر المنيف الذي شادهُ لزوجتهِ فيها واستعظمُ ما انفق عليهِ من الالوف والملايين ثم اتذكر كيف اغتالتهُ يد المنون في وطنهِ منذ ثماني سنين واقول انهُ غرس ولكن لغيره وشاد ولكن لسواهُ فان قصرهُ يهجر الآن حتى يؤجر لمن يجيءُ تلك الجهات من الامراء والملوك . وما زلتُ اميل تارةً ذات اليسار وطورًا ذات اليمين حتى دخلت بي المركبة من رتاج عظيم الى جنة نضرة ووقفت بي امام باب القصر حيث انست برؤية بعض من الخدم والحشم وقوفًا على رؤوسهم الطرابيش بعد ما ملَّت عيناي من رؤية البرانيط دون سواها مدة غيابي عن مصر . ولما دخلتُ الباب التقيتُ بحضرة عزتلو ياور بك من موظفي المعية وكنا قد سافرنا من الاسكندرية على باخرة واحدة فسلمنا وحمدنا اللقاء وسار بي حتى جمعني بسعادة الفاضل شفيق بك فسلمنا تسليم المشتاق بعد طول الفراق واتفق ان سعادة اسكندر باشا فهمي العضو الوطني في مجلس ادارة سكة الحديد كان متشرفًا حينئذٍ بمقابلة الحضرة الفخيمة الخديوية فقضيت لحظة الانتظار في غرفة شفيق بك اسمع منهُ اخبار مرض الجناب العالي وشفائهِ حتى ودع سعادة اسكندر باشا وخرج من الحضرة وامر سموهُ فتشرفتُ بالمقابلة

مرض الجناب العالي وشفاؤه

ولما دخلت قاعة الاستقبال اذا سموهُ واقف فيها بوجهٍ الصبوح وثغرهِ الباسم يرحّب بي ترحيب شرقي ورث كرم الاخلاق أبًا عن جد ، وجمع بين رقة الجانب وانس الحضر وبين عظمة الملك وهيبة السؤدد ويتلطف اليَّ في السلام والكلام ويتعطف بتقريبي منهُ واجلاسي بجانبهِ حتى دهشتُ مما شاهدتهُ من التنازل واللطف اشد مما يدهش الانسان من الهيبة وظواهر الصولة. ثم انطلق لساني بحمد الله على ما أرى على وجه سموهِ من علائم الصحة ودلائل العافية بعد المرض المضني الذي اقلق بال الامة

فقال سموهُ اني احمد الله على ذلك فقد ذُقتُ من ذلك المرض الاهوال وقضيتُ ثمانية ايام لم أذق فيها طعامًا غير المرق حتى حارت قواي لان سقف حلقي ورم وكذلك لثتي ولم أعد استطيع مضغ الطعام من شدة الالتهاب . واظن ان كثيرين يحسبون ان المرض اصابني في حنجرتي وليس كذلك فان حنجرتي وبلعومي كانا سليمين . ومما زادني ارتباكًا وحيرة انهُ اصابني في وقتٍ لم أكن أتوقعهُ فيهِ ولا كنتُ في متسع لهُ . فلذلك شددتُ عزيمتي وجعلتُ اقاومهُ واصارعهُ منذ شعرت بهِ في كولوني وصبرت عليهِ حتى وكيت البحت الملكي وشخّصهُ طبيب البحت بالدفتيريا كما شخصهُ كوتسكي بك طبيبي . فأيقنتُ حينئذٍ انهُ لم يبقَ مجال للقيل والقال ولا باب للاراجيف ولا لاشاعات الذين كانوا ربما يقولون ان الخديوي تمارض ليتخلص من زيارة لا يريدها ومن مقابلات يكرهها ونحو ذلك من الاقاويل التي يتوهمها قوم توهمًا ثم يذيعونها كانها حقائق لا ريب فيها . وعدتُ بعد التأمل فقلتُ ان اصابتي بهذا المرض وانا في اوربا خير من اصابتي بهِ قبل المجيء اليها لسدها كل سبيل للقول والارجاف من هذا القبيل . ثم عادني الدكتور سيمونس الشهير وهو الماني مستوطن انكلترا منذ زمان طويل وشهد حرب المانيا وفرنسا كأنهُ جندي بسيط بطوعهِ واختيارهِ فقال لي بعد الفحص انهُ يظن ان مرضي ليس الدفتيريا ولكنهُ لا يجزم بماهيتهِ الاَّ بعد عيادة أخرى فاطمأن بالي ولكنهُ غيَّر رأيهُ بعد العيادة الثانية ورجح رأي الطبيبين الآخرين واشار بالحقن تحت الجلد باللقاح المضاد للدفتيريا قائلاً انهُ ان كان المرض هو الدفتيريا قاومناهُ بالحقن وان لم يكن الدفتيريا فالحقن لا يضرُّ فيهِ ثم اخذ بعض الغشاء الابيض الذي ظهر على حلقي ليريني مكروبهُ و يعلم نوعهُ بالبحث البكتيريولوجي بعد مضي اربع وعشرين ساعة ووجه معظم عنايتهِ الى قلبي لشدة تأثره من هذا المرض فانهُ كان ينبض ١٤٠ نبضة في الدقيقة . فلما رأيتُ ان ذلك الطبيب المشهور عدل عن رأيهِ الاول وبقي مترددًا في ماهية مرضي جسم الامر عندي ونشأت من عاقبتهِ

ولاسيما لاني بت القلب على جمر الانتظار مدة اربع وعشرين ساعة مع ما بي من انحطاط القوة المتأتي عن قلة الطعام ومن الضعف المتأتي عن السقام . ومع ذلك بقي وجهي على ما ترى الآن لا تظهر عليهِ علامات الصحة والعافية

ثم تبين من البحث البكتريولوجي بعد الاربع والعشرين ساعة ان المرض من الامراض العفنية المعدية وانهُ كان يعدُّ قبل اكتشاف مكروب الدفتيريا الدفتيريا بعينها ولكنهُ غيرها ولما نقهتُ منهُ استرجعتُ صحتي وقوتي سريعاً حتى اني اتممت كل ما كان معيناً في بيان الزيارة بلا تغيير فيهِ ولا حذف شيء منهُ

امتنان سموه للاباء وطنيه وللاجانب

قلت الحمد لله يا مولاي على شفاء سموكم ورجوع عافيتكم فان اخبار مرضكم اقلقت كل رعاياكم واعلم ان كل مصري جاء بلاد سويسرا في هذا الصيف كان بحسب مرض سموكم مرضاً في عزيز عنده كما كان شأن اخوانهِ المصريين في وطننا العزيز وكان يطرق كل باب للاستعلام عن صحة سموكم يومياً وعن رأي الاطباء في مرضكم

فقال سموهُ اني لا اقدر ان اصف لك يا دكتور ما وجدتُ في نفسي من البسط والارتياح وسط اشتداد المرض والم السقام مما ثبت لي من حب ابناء وطني لي وتعلقهم بي حتى كنتُ اقول على سريري ان الله ابتلاني بهذا المرض لامتحاني من جهة ولتطييب خاطري باظهار ما لي من الحب في نفوس شعبي فانا ممتنٌّ لهم عظيم الامتنان سواء كانوا داخل القطر او خارجهُ وشاكرٌ لهم على تعلقهم بي وكذلك شكري عظيم للاجانب الذين اثبتوا حبهم لي وعطفهم عليَّ في مرضي وخصوصاً جلالة ملكة الانكليز واعضاء العائلة المالكة الانكليزية ورجال الدولة البريطانية فان جلالة الملكة كانت تستعلم يومياً عني من اربعة من رجالها الذين معي واعضاء العائلة المالكة كانت استعلاماتهم عني متتابعة متواصلة . وكان اهتمامهم كلهم بامر صحتي يؤثر في نفسي تأثيراً عميقاً فانهم كانوا يبذلون جهدهم في تخفيف مشقة الاحتفالات والزيارات عليَّ ويرغبون اليَّ في وسط الحفلات الكبرى ان اتدم راحتي ومقتضى صحتي في الاهتمام على كل المعاملات الرسمية . فذلك وشدة اعتنائهم بجعل مقابلاتي من احسن المقابلات في كل امر كلي وجزئي واحتفالهم بزيارتي كاحتفالهم بزيارات اعظم زائريهم من الملوك والامراء وقع في نفسي وقعاً عظيماً لما فيهِ من الدلالة على كرم الاخلاق وصدق الوداد وحسن النية

حنين سموه الى العائلة والوطن

ولكني لما اتممت زيارتي وعدت من الكاترا شعرت بضعف لا مزيد عليهِ وكأن كل قوتي

فارقتني فسافرت من كالي الى باريس ومنها الى ديفون وانا لا اكاد اقف على قدمي لشدة ما بي من الضعف حتى ان الاطباء في ديفون قالوا اني لا استطيع الانتقال الى هنا وأبوا ان يسمحوا لي بحمام " الدوش " لعدم احتمالي لهُ ولكني اذهب كل يوم واستحم بمياه ديفون واراني قد اكتفيت بالاربعة عشر حماماً التي استحممتها فيها فاسترجعتُ قوتي وعدتُ الى عافيتي

ثم تنفس سموهُ الصعداء وقال واني كنت اقضي في هذه الجهات ستة اسابيع ولكن ارى ان فراقي لعائلتي قد طال (وبانت عليهِ علامات الشوق الى ولي عهدهِ صانهُ الله وحماهُ والى الاهلين والاوطان) فأرى الاولى بي الاسراع الى الوطن ولذلك عزمتُ على السفر غداً وطلبتُ من شفيق بك ان يبلغك ذلك حتى تراني قبلما اسافر

نتيجة الزيارة لانكلترا

نقلت لسموهِ وعسى ان زيارة افندينا لانكلترا ارضتهُ من الجهة الخصوصية فكانت نتيجتها حسنة لمقام الخديوية والبلاد المصرية . فاظهر سموهُ تمام الرضى من كل ما رآهُ وما سمعهُ سواء كان من اعضاء العائلة المالكة او من رجال الدولة البريطانية ثم قال ولا بدَّ ان تكون قد اطلعتَ على خطبة اللورد مايور محافظ لندن وحكمتَ بما لها من الاهمية الكلية حيث اكَّدت حسن العلائق بيننا وبين الامة الانكليزية واثبتت باجلى بيان ان مقام الخديوية هو مناط امور مصر وعليهِ المعوَّل واليهِ المرجع فيها . فنتيجة زيارتي للندن امر جلَّ ومرادي ان اعيد الزيارة لها من حين الى حين اذا سمحت الفرص ووافقت الاحوال لتجديد عهود الوداد وتوكيد العلائق التي تفيد البلاد

فقلت نعم يا مولاي اني طالعت تلك الخطبة بتأمل وتدبر وادركتُ منها ما اشرتم سموكم اليهِ ولا شك عند كثيرين من المخلصين الولاء لسموكم من رعاياكم ان هذه السياسة من احسن السياسات التي تنيل مقام الخديوية غايتهُ وتفيد بلادهُ . وقد علمتُ من صديق يكاتبني من لندن ان زيارة سموكم اثَّرت تأثيراً حسناً جداً في اذهان الانكليز وان بعضاً من اكابرهم قال انهُ وجدكم أدرى كثيراً باحوال بلادكم مما كان يظنهُ فيكم قبل اجتماعهِ بكم

فقال سموهُ ان المستر تشمبرلن والمستر جوشن (من وزراء انكلترا) حدَّثاني طويلاً وسألاني عن مصر واهلها واحوالها واشغالها واعمالها تفصيلاً . ثم تبسَّم سموهُ وقال ولحظتُ بعد ذلك عليهما انهما استغربا معرفتي لبلادي واهلها واني ممازج لشعبي ومطلع على احوالهِ واشغالهِ

الخطة السياسية المصرية

ثم انتقل سموهُ من التعميم الى التخصيص واطال في ذلك فاقتطفُ من اقوالهِ الغرَّ ما

يوافق المقام وما يستدل منهُ الكاتب على الخطة السياسية التي يظهر ان سموهُ يجري عليها الآن في تدبير الامور المصرية . قال اعزَّهُ الله وقد تكلمت مع كثيرين من رجال الدولة البريطانية عن جناب اللورد كرومر في زيارتي للندن فاخبرتهم صريحاً بما أراهُ وما اعتقدهُ فيهِ حيث قلتُ اني احترمهُ كثيراً واجلُّ قدرهُ لاني وجدتهُ بعد الاختبار رجلاً هماماً امينًا يخدم دولتهُ ويسعى في مصلحتها بالصدق والاستقامة . وان كنا نختلف في الرأي احياناً فهذا الاختلاف امر لا بد منهُ بين اثنين ينظر كلٌّ منهما من جهتهِ ويسعى في مصلحة خاصتهِ . ولو رأيتُ منهُ في ما مضى ضعفاً يستمال بهِ عن جادة الصدق والامانة لانحطَّت منزلتهُ في عينيَّ ولم يكن لهُ عندي ما لهُ الآن من الاكرام والاحترام . وقد عرفتهُ ساعات الغيظ والرضى واجتمعت بهِ ايام الانس والجفاء وعاشرتهُ في الاتفاق والاختلاف فعرفت طباعهُ واخلاقهُ وصار سهلاً عليَّ حل المشاكل وانجاز الامور معهُ فوجودهُ عندنا محبوب عندي وميسِّر لقضاء المهام عليَّ . وبعد ما اسهب سموهُ في هذا المعنى طويلاً قال وان كل مسألة انحصرت بيني وبين اللورد كرومر ولم يدخل فيها سوانا ولا تعدَّت الى غيرنا زالت مشاكلها بيننا وانحلت على ما يرام بخلاف المسائل التي كان يتعرض لها سوانا معنا ونتناقلها افواه غيرنا فانها كانت تزداد اشكالاً وتعقيداً وتتعدَّد وجوه الاختلاف فيها يوماً فيوماً ثم تنتهي على غير ما يرام حتى ثبت لي بعد الاختبار ان بعض المتعرضين كان يتوخى ايغار الصدور والقاء الجفاء والنفور بيننا لغرض يعلمهُ الله . واما الآن فذلك قد زال ولم يبقَ للسعي في التفريق مجال . ثم اثنى سموهُ في سياق الكلام على جناب المستر غورست المستشار المالي لما يبدي من حب الاتفاق ولسعيهِ في تأليف القلوب وتذليل المصاعب وحلِّ المشاكل في المسائل التي تعرض للحكومة ومدحهُ على سعة عقلهِ وسمو ادراكهِ ورحب صدرهِ وحسن نيتهِ وصفاء طويتهِ . ومدح جناب السر رنل رود ايضاً على لطفهِ وظرفهِ وكمال ادبهِ واجتهادهِ في تسهيل الزيارة على سموهِ ولم يبخس سعادة السردار حقهُ من المدح ايضاً

وقال سموهُ قبل ان انتقل من هذا الحديث الى غيرهِ اني لما وصلت الى كالي كلَّفت الكولونل كارنجتن ياور الملكة الذي كان بمعيتي ان يبلغ جلالتها شكري لفضلها ولا عضاء عائلتها على ما لقيتُ من الحفاوة وحسن الضيافة والاكرام وما رأيتُ من دلائل الوداد وحسن الوفاء وكلفت السر رنل رود ان يبلغ اللورد سالسبري وسائر النظار شكري وامتناني ويخبرهم اني سائر الى ديفون توًّا ثم اعود في اواسط الشهر القادم الى بلادي ويحتمل اني اعرِّج على الاستانة في عودتي لزيارة الحضرة الشاهانية بضعة ايام حسب عادتي

فيتبين القارئ من الطرف الذي اوردتهُ من اقوال سموه ايدهُ الله صدق ما قلتهُ في مقالتي عن زيارة سموه لندن ان تلك الزيارة عنوان سياسة المسالمة والاتفاق والتعاون على الاصلاح . واني وان كنت على يقين ان هذه السياسة التي تستصوبها حكمة الجناب العالي هي عين السياسة التي يستصوبها جناب اللورد كرومر واكابر المحتلين للقطر المصري وانها عين ما تتمناهُ الدولة البريطانية كلها من جلالة ملكتها الى اصغر رجال حكومتها لا أرى بدًّا من تنبيه صغار المحتلين الى هذا الامر الجلل والسلوك على مقتضاهُ حتى يكونوا مثل رؤسائهم واكابرهم قدوة لغيرهم في دماثة الاخلاق وحسن السلوك ورقة الجانب ولا يجعلوا للمصريين سبيلاً للشكوى من تكبرهم وتغطرسهم ومعاملتهم لهم بالازدراء والاحتقار . فليعتبروا كيف عاد الجناب العالي من بلادهم وكلهُ السنة شكر وثناء على امتهم للطف ملكتها ورقة جانب امرائها وحسن اخلاق اكابرها وعظمائها بل ليعتبروا كيف يثني كل مصري عرف رجال الوكالة البريطانية في مصر على لطفهم واحترامهم للوطنيين ومعاملتهم لهم باللطف والرقة وليقتدوا بفضلائهم في معاملة المصريين والابتعاد عما يسؤهم واجتناب اسباب الخصومة والنزاع ولا سيما بعد ما ثبت لهم ميل الاهالي جميعهم الى مسالمتهم ومحاسنتهم

عودة سموه الى الاسكندرية

وسألت سموهُ في سياق الحديث قائلاً والى اين تقصدون سموكم بالسلامة في سفركم من هنا فقال اني اسافر غدًا (الاثنين في ٢٣ الجاري) قاصدًا اجبال سويسرا وانتقل من مكان الى مكان حتى اصل الى فينا في اول اغسطس ثم البث فيها بضعة ايام وحينئذٍ فإما ان اسير الى الاستانة لزيارة الحضرة الشاهانية واقيم هناك حوالي اسبوع من الزمان ثم ارجع مع عائلتي منها . واما ان اسافر الى الاسكندرية نوًّا ولا اعرّج على الاستانة وتوافيني عائلتي من الاستانة اليها . وسواء عرجت على الاستانة او لم اعرج عليها فاني اصل الى الاسكندرية في اواسط شهر اوغسطس ان شاء الله

وبعد ما قضيت بين يدي سموه نحو ساعتين اذن لي فقمت وانا اثني جميلاً واطلب لسموه عمرًا طويلاً

واستأذنتهُ قبل الوداع في نشر بعض الحديث قائلاً اني اعلم يامولاي ان احاديث الملوك والامراء عزيزة يضن بها على الجرائد ولا يمنُّ بادراجها ونسبتها الى اصحابها الاَّ عند ارادة امر خطير والامر الذي تكرمتم سموكم فابتأتموني اياهُ امر جال بهم جميع المصريين فهلاَّ تفضلتم فاذنتم لي في نشره افادة للجمهور . فافترَّ سموهُ وتوقدت نار الذكاء في عينيهِ ثم حولها نحوي وادام

نظرها الي وهو يعمل الفكرة الثاقبة في ما هو معروض عليهِ. ثم قال افعل ما تجدهُ نافعاً. فخرجت وانا اكرر الدعاء واسرعت الى المنزل الذي انا فيهِ وارسلت اليكم بهذه العجالة ليطلع القراء الكرام على ما يتشوفون اليهِ من اهم اخبار سمو الامير حفظهُ الله وزاد عزهُ وعلاهُ

نيون (بسويسرا) في ٢٢ يوليو سنة ١٩٠٠ (فارس نمر)

البعوض والحمّى

وكيفية التقائهما

يعذرنا القراء اذا عدنا الى هذا الموضوع لانهُ ليس بين المباحث التي يهتم بها الآن علماء الطب وعلماء البيولوجيا وعلماء حفظ الصحة عموماً ما هو اهم منهُ بل يجب ان يكون لهُ الشأن الاكبر في نظر كل انسان لانهُ ما من احد الاَّ وأُصيب بالحمّى الملارية او اصيب بها احد اخوتهِ او اخواتهِ او اقاربهِ وودَّ ان يعرف سبيلاً للنجاة منها وقد صار هذا السبيل معروفاً ميسوراً كما سترى في ما يلي

ظنَّ كثيرون من زمان قديم ان للبعوض علاقةً بالحمّى الملارية . ولم يقتصر ذلك على المتعلمين الذين يرقبون الحوادث الطبيعية ليردوها الى اسبابها بل شاركهم فيهِ المتوحشون فقد وجد الدكتور كوخ الشهير اناساً من سكان افريقية الاصليين في املاك المانيا بشرقي افريقية يعرفون ان الحمى التي يصابون بها اذا نزلوا من جبالهم الى السهول تأتيهم من لسع البعوض وهم يسمون هذه الحمى وهذا البعوض اسماً واحداً. وهذا شأن الفلاحين في بعض جهات ايطاليا فانهم يعتقدهم ان الحمى الملارية تأتيهم من لسع البعوض

ثم لما اكتشف لافران الجراثيم الحية في دماء المحمومين ظنَّ انها تنتقل منهم الى البعوض الذي يلسعهم ويمتص دمهم والبعوض ينقلها الى من يلسعهُ من الاصحاء فيصاب بالحمى لكنهُ لم يستطع اثبات ذلك بالامتحان ولا بالدليل

ثم وجد الدكتور غولجي وغيرهُ ان هذه الجراثيم تختلف نسلاً وهي في جسم الانسان وذلك هو سبب ادوار الحمى لكن نسلها لا يبلغ تمام نموهِ وهو في جسم الانسان ولا يبلغهُ اذا خرج منهُ وخرج من الدم ايضاً . ولا بدَّ لهُ لاتمام دور من ادوار نموهِ من ان يخرج من جسم الانسان مع قليل من دمهِ. وعليهِ فلا سبيل لانتقال الحمى من المحموم الى السليم بواسطة تنفُّس المحموم او نفثهِ او عرقهِ او مبرزاتهِ اذ لا بدَّ من خروج شيء من الدم مع هذه الجراثيم